

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ
 ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (٩٢) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٣﴾
 قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾
 قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٦﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا
 فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٧﴾ ﴿الصافات: 91 - 98﴾

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَتْ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ حَوَارَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي انْكَارِهِ عَلَىٰ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ أَنْ يَعْبُدُوا إِلَهًا سِوَاهُ سُبْحَانَهُ، وَنَظَرَهُ فِي النُّجُومِ وَمَا تَبِعَهُ مِنْ ذِكْرِهِ بِأَنَّهُ سَقِيمٌ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِحِيلَةٍ فِي نَفْسِهِ، أَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُ إِلَىٰ مُعِيدِهِمْ، وَيَتْرَكُوهُ وَحْدَهُ؛ لِيَنْفَرِدَ بِإِحْرَازِ غَرَضِهِ الَّذِي كَتَمَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ فِي السَّابِقِ تَمْهِيدَهُ لِلْغَرَضِ، ذَكَرَ هُنَا شُرُوعَهُ فِي الْغَرَضِ نَفْسِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ﴾، وَمُسْتَتَبَعَاتِ تِلْكَ الْحَادِثَةِ، وَالْمُحَاكَمَةِ الَّتِي جَرَتْ عَلَيْهِ بِسَبَبِهَا، فَهُوَ انْتِقَالٌ مِنْ بَيَانِ مَوْقِفِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ مِنْ آلِهِ قَوْمِهِ الْقَوْلِيِّ، إِلَىٰ بَيَانِ مَوْقِفِهِ الْفِعْلِيِّ.

❖ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿فَرَاغَ﴾: الرَّوْغُ: الميل على سبيل الاحتيال، ومنه: رَاغَ الثَّعْلَبُ يَرَوُغُ رَوَاغًا، وَطَرِيقٌ رَائِغٌ: إِذَا لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِيمًا، كَأَنَّهُ يَرَاوِغُ، وَرَاوِغٌ فَلَانٌ فَلَانًا، وَرَاغٌ فَلَانٌ إِلَىٰ فَلَانٍ: مَالٌ نَحْوُهُ لِأَمْرٍ يَرِيدُهُ مِنْهُ بِالْإِحْتِيَالِ، وَهُنَا ﴿فَرَاغَ﴾ بِمَعْنَى: مَالٌ⁽¹⁾.

(2) ﴿تَنْطِقُونَ﴾: (نطق) يُقَالُ: يَنْطِقُ نَطْقًا وَمَنْطِقًا، وَيَكُونُ هَذَا لَمَّا لَا نَفْهَمُهُ نَحْنُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: 16]⁽²⁾.

(1) الرأغب، المفردات، ص: 373.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نطق).

الانتقال من
الموقف القولي
من الباطل إلى
الموقف الفعلي

وَالنُّطْقُ فِي التَّعَارُفِ: الأصواتُ الْمُقْطَعَةُ الَّتِي يُظْهِرُهَا اللِّسَانُ، وَتَعْيِهَا الْآذَانُ، وَلَا يَكَادُ يُقَالُ إِلَّا لِلْإِنْسَانِ، وَلَا يُقَالُ لغيرِهِ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ⁽¹⁾.

(3) ﴿يَزِفُونَ﴾: (زفف)، يقال: زَفَّ الإِبِلُ يَزِفُ زَفًّا وَزَفِيفًا، وَأَزَفَّهَا سَائِقُهَا، وَيَزِفُونَ، أَي: يَحْمِلُونَ أَصْحَابَهُمْ عَلَى الزَّفِيفِ، وَأَصْلُ الزَّفِيفِ فِي هُبُوبِ الرِّيحِ، وَسُرْعَةِ النَّعَامِ الَّتِي تَخْلُطُ الطَّيْرَانَ بِالْمَشْيِ، وَزَفَزَفَ النَّعَامُ: أَسْرَعَ، وَمِنْهُ اسْتَعِيرَ: زَفَّ الْعُرُوسُ، وَاسْتِعَارَةُ مَا يَقْتَضِي السَّرْعَةَ لَا لِأَجْلِ مَشْيِهَا، وَلَكِنْ لِلذَّهَابِ بِهَا عَلَى خَفَّةٍ مِنَ السَّرُورِ، وَ﴿يَزِفُونَ﴾ هُنَا، أَي: يَسْرِعُونَ⁽²⁾.

(4) ﴿تَنْجُتُونَ﴾: أَصْلُ (نحت) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى نَجَرِ شَيْءٍ وَتَسْوِيَّتِهِ بِحَدِيدَةٍ⁽³⁾، وَالنَّحْتُ: الْأَخْذُ مِنَ الشَّيْءِ؛ لِتَجْعَلَهُ عَلَى صُورَةٍ مَخْصُوصَةٍ، كَنَحْتِ النَّحِيَةِ وَالصَّنَمِ وَالْبَيْتِ مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ وَنَحْوَهُمَا، وَيَكُونُ فِي الْأَجْسَامِ الصُّلْبَةِ الْمُحْتَمَلَةِ لَذَلِكَ، وَقَدْ يُتَجَوَّزُ بِهِ فِي غَيْرِهَا⁽⁴⁾، وَنَحَتَ الْجَبَلَ يَنْحِتُهُ: قَطَعَهُ⁽⁵⁾، وَالتَّحَاتَةُ: مَا يَسْقُطُ مِنَ الْمُنْحَوْتِ، وَالنَّحِيَّةُ: الطَّبِيعَةُ الَّتِي نُحِتَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ، كَمَا أَنَّ الْغَرِيزَةَ مَا غُرِزَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ⁽⁶⁾، وَالْمَقْصُودُ بِالنَّحْتِ فِي الْآيَةِ: بَرِّي الْحَجَرِ مِنْ وَسْطِهِ أَوْ مِنْ جَوَانِبِهِ.

(5) ﴿كَيْدًا﴾: أَصْلُ (كيد) يَدُلُّ عَلَى مَعَالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، ثُمَّ يُسَمَّوْنَ الْمَكْرَ كَيْدًا⁽⁷⁾، وَالْكَيْدُ مِنَ الْمَكِيدَةِ: وَهُوَ الْإِحْتِيَالُ وَالْاجْتِهَادُ فِيمَا يَقْصِدُهُ الْإِنْسَانُ، وَغَلَبَ فِي الْمَكْرِ⁽⁸⁾، وَهُوَ أَيْضًا: الْخَبْثُ، وَالْمَضَرَّةُ، وَالتَّدْبِيرُ الْمُحْكَمُ الشَّدِيدُ وَتَنْفِيزُهُ⁽⁹⁾، وَقَدْ يَكُونُ مَذْمُومًا وَمَمْدُوحًا، وَإِنْ كَانَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَذْمُومِ أَكْثَرَ، وَهُنَا ﴿كَيْدًا﴾ بِمَعْنَى: السُّوءِ⁽¹⁰⁾.

(6) ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾: الْجَذَرُ (سفل) مِنَ السُّفْلِ: ضِدُّ الْعُلُوِّ، وَسُفْلٌ فَهُوَ سَافِلٌ، قَالَ تَعَالَى:

(1) الزَّاعِبُ، الْفُرْدَاتُ، ص: 373.

(2) الزَّاعِبُ، الْفُرْدَاتُ، ص: 380.

(3) ابْنُ فَارِسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ: (نحت).

(4) السَّمِينُ، عُمْدَةُ الْحَقَائِظِ: (نحت).

(5) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (نحت).

(6) الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، وَابْنُ فَارِسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ، وَالزَّاعِبُ، الْفُرْدَاتُ: (نحت).

(7) ابْنُ فَارِسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ: (كيد).

(8) السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ، عُمْدَةُ الْحَقَائِظِ: (كيد).

(9) الرَّيْدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ، وَجِبِلُ الْعَجَمِ الْإِسْتِغْنَاءُ لِلْمُؤَلِّ: (كيد).

(10) الزَّاعِبُ، الْفُرْدَاتُ، ص: 728.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: 74]، وَأَسْفَلَ ضِدُّ أَعْلَى، قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: 42] وَسُفَالَةُ الرِّيحِ: حَيْثُ تَمُرُّ الرِّيحُ،
 وَالْعُلَاوَةُ ضِدُّهُ، وَالسُّفْلَةُ مِنَ النَّاسِ: النَّذْلُ، نَحْوُ الدَّوْنِ، وَأَمْرُهُمْ فِي
 سَفَالٍ، وَمَعْنَى ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ فِي الْآيَةِ، أَيِ: الْأَذْلَى حِجَّةً⁽¹⁾.

❁ اللَّغْنَى الْإِجْمَالِي:

المؤمن أشدُّ
 انتصاراً لله
 الحقِّ مِن
 انتصارِ الضَّالِّينَ
 لباطلهم

تُبَيِّنُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَا قَامَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ مِنْ رَوَّغَانِهِ إِلَى أَصْنَامِ
 قَوْمِهِ مُسْرِعًا مُتَخَفِيًا، وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْهَا الطَّعَامَ الَّذِي وَضَعُوهُ أَمَامَهَا؛
 لِيُصِيبُوا مِنْ بَرَكَتِهَا فِي زَعْمِهِمْ، فَبَدَأَ فِي خِطَابِ مَعْبُودَاتِهِمْ، سُخْرِيَّةً
 مِنْهُ وَاسْتَهْزَاءً، وَتَقْرِيرًا وَإِنْكَارًا، وَغِيظًا مِنْ عَابِدِيهَا وَتَوْبِيخًا؛ (أَلَا
 تَأْكُلُونَ هَذَا الطَّعَامَ الَّذِي يُقَدِّمُهُ لَكُمْ سَدَنُكُمْ؟) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ
 وَلَا تُجِيبُونَ مَنْ يَسْأَلُكُمْ؟) فَأَقْبَلَ عَلَى آلِهَتِهِمْ يَضْرِبُهَا وَيُكْسِرُهَا
 بِيَدِهِ الْيُمْنَى؛ لِيُثَبِّتَ لِقَوْمِهِ خَطَأَ عِبَادَتِهِمْ لَهَا، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ -
 رَاجِعِينَ مِنْ مُعِيدِهِمْ لَمَّا عَلِمُوا بِالْخَبْرِ - يَعْدُونَ مُسْرِعِينَ غَاضِبِينَ،
 جَاهِزِينَ لِلْفِتْكِ بِهِ، فَلَقِيَهُمْ إِبْرَاهِيمُ بِثَبَاتٍ قَائِلًا: (كَيْفَ تَعْبُدُونَ
 أَصْنَامًا تَحْتُونَهَا أَنْتُمْ، وَتَصْنَعُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ، وَتَتْرَكُونَ عِبَادَةَ رَبِّكُمْ
 الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ عَمَلَكُمْ؟) فَلَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَنَكَسُوا
 رُؤُوسَهُمْ، لَجَّوْا إِلَى الْقُوَّةِ وَالْإِعْتِدَاءِ، وَقَالُوا: (ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا،
 وَامْلُؤُوهُ خَطْبًا، وَأَضْرِبُوا فِيهِ النَّارَ حَتَّى إِذَا التَّهَبَ كَالْفُرْنِ الْعَظِيمِ،
 فَأَلْقُوهُ فِي جَحِيمِهِ الْمُسْتَعْلِ دِرَكَاتٍ بِحَجْمِ ذَلِكَ الْبُنْيَانِ)، فَأَرَادَ قَوْمُ
 إِبْرَاهِيمَ بِهِ كَيْدًا بِشُرُوعِهِمْ فِي إِهْلَاكِهِ حَرْقًا، فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ الْمَقْهُورِينَ
 الْمَغْلُوبِينَ، وَرَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، وَجَعَلَ النَّارَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ
 بَرْدًا وَسَلَامًا⁽²⁾.

(1) الطبري، جامع البيان: 576 / 19.

(2) مجموعة من المؤلفين، للتخفيف في التفسير، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ونخبة من العلماء،
 التفسير للبشر مجمع الملك فهد، وأبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 416 / 4.

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

نوع الفاء ودلائلها الرابطة:

قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾، والفاء تدلُّ على سرعة الإتيان بالفعل بمجرّد حصول سببه؛ أي: (بمجرّد أن وُلّوا مُدْبِرِينَ وذهبوا عنه راغٍ إلى آلهتهم على الفور). ويصحّ أن تكون الفاء للتّعقيب النسبي لا الفوري⁽¹⁾.

بلغة استعمال مُفردة (راغ):

جاء استعمال مُفردة (راغ) في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ﴾، ولم يقل: (فذهب إلى آلهتهم)؛ ليدلّ على أنّه ذهابٌ مخصوصٌ بارتكاب حيلةٍ على سبيل الخفية. فراغ من الرّوغ والرّوغان؛ بمعنى: (الميل إلى جانبٍ أو جهةٍ خفيةٍ)؛ لإنفاذ المقصود من غير انكشافٍ وظهورٍ⁽²⁾، واختيارُ هذه المُفردة لبيان أن إبراهيم ﷺ قد احتال فيما يُريده من ضرب الأصنام الآلهة، وأنّ القوم كانوا محتاطين منه، فلمّا أوهمهم السُّقْمُ المُقْعَدَ - وسُقْمُهُ معنويٌّ من حال قومه، أو أنّه سُقْمٌ مستقبليٌّ باعتبار ما يعتري آحاد البشر - تركوه وذهبوا إلى شأنهم، فذهب حينئذٍ إلى الأصنام، فناسب هذا المعنى هذه المُفردة دون رديفاتها.

بلغة التّضمين:

عُدِّي فعل (راغ) بحرف الانتهاء ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ﴾؛ لتضمينه معنى الذهاب⁽³⁾ والوصول؛ أي: (ذهب إليها)، ونكتة التّضمين بيان أنّه أراد الوصول إلى مكانٍ معبوداتهم، وأنّه أمرٌ يحتاج إلى حيلةٍ وتديبٍ، ففيه إشارةٌ إلى نجاح خطّته، وإنفاذ حيلته.

صاحب الحق
يدفع الباطل
بعمله ما لم
يجد للقول نفاذاً

الرّوغان انتقالاً
من مكانٍ لآخر
بحيلةٍ وفطنةٍ

بلوغ الغايات
يحتاج إلى
بذل الأسباب
والإعانة من ربّ
الأرباب

(1) صافي، الجدول: 70 / 12.

(2) الرّاغِب، للفرّذات: (روغ)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 342 / 26.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 143 / 23.

علة إطلاق اسم الآلهة على الأصنام:

استعمال
الألفاظ بحسب
اعتقاد الآخر
ليس ممنوعاً

إطلاق وصف الآلهة على معبوداتهم الباطلة في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾، هو بحسب اعتقادهم⁽¹⁾، ولذلك أضافه إلى ضميرهم، وهي إضافة تسجيل عليهم، تثبيتاً لجنايتهم، وامتهاناً لهم، فهي الأصنام التي يتخذونها من دون الله تعالى، وهذا حالها الذي ستعرفه أيها المخاطب.

نكتة المجاز بالحذف:

لأجل بيان
المقاصد تحذف
الوسائل

في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ جرى المعنى على حذف مضاف؛ أي: فراغ إلى مكان آلهتهم، أو إلى معبد آلهتهم، أو مجمع آلهتهم؛ لأن الذهاب إلى الآلهة هو انتهاء إلى مقرها الذي جمعوها فيه، فهو مجاز بالحذف، ونكتته بيان المقصود بالوصول، وهي الأصنام؛ للتنبيه على أنه كان على تفكير وتدبير لما يقوم به، ولم يأت الأمر اعتباطاً.

نوع الفاء ودلالاتها:

أعمال الأولياء
ميسرة بإعانة
ذي الجلال
والكبرياء

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ معطوفة على ما قبلها ﴿فَرَاغَ﴾، والفاء تفريعية؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ويصح أن تكون فصيحة، على تقدير محذوف؛ أي: فراغ إلى آلهتهم، فوجد حول أصنامهم طعاماً فقال مخاطباً لها: ألا تأكلون، ومجيء الفاء لبيان تيسير الله تعالى له فعله، فهي أحداث متوالية متسارعة يسرها العليم القدير.

معنى الاستفهام وغرضه للجازي:

الاستهزاء
بالغائب متوقف
على مقصود
التكليم لا على
حضور الغائب

الاستفهام بـ ﴿أَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ لِعرض القيام بالفعل، فهو ﴿يَعْرِضُ﴾ على تلك الأصنام أن تأكل الطعام الذي كدسه عبدتها حولها. و﴿أَلَا﴾ تدخل على فعل مقدّر حصوله،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23 / 143.

فالاستفهامُ بها عن فعلٍ ما يُستَقْبَلُ⁽¹⁾، فغرضُ الاستفهام طلبُ القيام بفعلٍ غير مُتَحَقِّقٍ.

وَعَرَضُ الاستفهامِ الاستهزاءُ بالآلهةِ العاجزةِ الجامدةِ، فهو استعمالُ الاستفهامِ في غيرِ معناه الحقيقيِّ، فهو مجازٌ مرسلٌ لعلاقةِ الإطلاقِ والتقييدِ، فأطلقَ الاستفهامَ وقيدهُ بمعنى الاستهزاءِ والتَّنَدُّرِ بالآلهةِ، أو بعابديها - غيرِ الحاضرينِ أمامه - توبيخًا واحتقارًا، فقد يَحْتَقِرُ المرءُ الغائبَ كما يَحْتَقِرُ الحاضرَ⁽²⁾، وإنما يَنْتَزِعُ هذا المعنى من السَّيَاقِ.

بلادةُ التعريضِ في استعمالِ مُفْرَدَةِ الأكلِ:

لَمَّا قَالَ ﷻ مُخَاطِبًا الْأَصْنَامَ بِالْأَكْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ عَرَضَ الْأَكْلِ عَلَيْهَا كَنَايَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَكْلَ كَانَ موجودًا إِلَى جَانِبِهَا⁽³⁾، وهذه إشارةٌ قرآنيةٌ إِلَى صَنِيعِ الْقَوْمِ مَعَ الْأَصْنَامِ، وَأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا فِيهَا الْإِعْتِقَادَ الْبَاطِلَ، أَوْ أَنَّ سَدَنَةَ الْأَصْنَامِ هُمُ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا هَذِهِ الْحِيلَةَ كَيْ يُقَدِّمَ الْعَوَامُّ الطَّعَامَ لِلْأَصْنَامِ فَيَأْكُلَهَا خَدَمُ الْآلِهَةِ، وَعَلَيْهِ فَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يُعَرِّضُ بِسَادَةِ الْكُفْرِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ سَيَأْكُلُ تِلْكَ الْمَطْعُمَاتِ، وَأَنَّهُ لَا أَكَلَ وَلَا مَأْكُولَ إِلَّا مَا يَقُومُ بِهِ الْمُجْرِمُونَ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: (أَلَا تَأْكُلُونَ أَوْ أَنَّ غَيْرَكُمْ سَيَأْكُلُ!).

إِطْلَاقُ الْأَكْلِ
وإِرَادَةُ الْأَكْلِ
الْحَقِيقِيِّ
تَعْرِيفًا بِهِ

توجيهُ الاستعارةِ فِي الْخِطَابِ:

لَمَّا وَجَّهَ إِبْرَاهِيمُ ﷻ الْخِطَابَ إِلَى غَيْرِ الْعَاقِلِ وَهُمْ الْأَصْنَامُ، وَقَعَ تَشْبِيهُهُمْ بِالْعَاقِلِ؛ إِذْ غَيْرُ الْعَاقِلِ لَا يُخَاطَبُ، وَذَلِكَ بِتَنْزِيلِ غَيْرِ الْعَاقِلِ مَنْزِلَةَ الْعَاقِلِ فِي صِلَاحِيَةِ الْخِطَابِ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ بِقَرِينَةِ الْخِطَابِ، وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِعَاقِلٍ، وَلَا سَتِعِمَالٍ ضَمِيرِ الْعُقَلَاءِ فِي ﴿تَأْكُلُونَ﴾، وَنَكَتَهُ اسْتِعَارَةُ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي

لَوْ قَدَّرَ لِلْأَصْنَامِ
عَقْلًا لَكَانَتْ
أَعْقَلُ مِنْ
عَابِدِيهَا

(1) القونوي، حاشية القونوي: 285/16، والسامرائي، معاني النحو: 210/4.

(2) القونوي، حاشية القونوي: 285/16.

(3) ابن عُثَيْمِينَ، تفسير سورة الصافات، ص: 200.

الاستهزاء بالأصنام، المراد به بيان ضعف عقول عابديها، وذهاب إدراكهم ويقظتهم.

بلاغة الكناية في خطاب الأصنام:

مُخَاطَبَةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ تِلْكَ الْأَصْنَامَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝١١ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ﴾ وهو في حال خلوة بها وعلى غير مسمع من عبدتها، فيه كناية عن ثوران نفسه غضباً عليها - إذ زعموا لها الإلهية - فكأن في خطابه لها قوة وعزماً على تحطيمها⁽¹⁾؛ فالإنسان لا يُخاطَب غير العاقل، وهو إنما خاطب بها عابديها، وقد جعل الخطاب توطئةً للتحطيم والهدم، لأنَّ الانفعال قبل الفعل أحرى بالأداء والقيام بالمطلوب.

بلاغة التورية في الخطاب:

فِي جَعَلِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ الْخِطَابَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْأَصْنَامِ توريةً بدیعةً فِي الْمُخَاطَبِ الْمَقْصُودِ، فَإِنَّهُ مَا قَصَدَ خِطَابَ الْجَمَادَاتِ؛ لَعْدِمِ صِلَاحِيَّتِهَا أَصْلًا لِلْخِطَابِ، فَلَمْ يَقْصِدِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ لِلْخِطَابِ، بَلْ قَصَدَ الْمَعْنَى اللَّازِمَ عَنِ الْخِطَابِ، وَهُوَ تَذَكُّرُ كَذِبِ الَّذِينَ آلَّهُوْهَا وَالَّذِينَ سَدَنُوا لَهَا بِالْخِدْمَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا تَأْكُلُ الطَّعَامَ الَّذِي يَضَعُونَهُ بَيْنَ يَدَيْهَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَكْلُمُهُمْ وَتُخَبِّرُهُمْ⁽²⁾. فهناك معنى قريب غير مقصود وهو خطابه لتلك الآلهة، ومعنى بعيد هو المقصود، وهو لازم ذلك الخطاب، وذلك هو حاصل التورية.

بلاغة فصل الجملة عن السابقة:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ﴾ مِنْ تَمَامِ مَقُولِ الْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أَي: (قال ذلك)، وَقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ﴾. أَوْ هِيَ مَقُولُ لَقَوْلِ مُقَدَّرٍ: أَي: فقال ألا تأكلون، فلم يجيبوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23 / 143.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23 / 144.

الغضب توطئة
للعمل وتهينة
لإنجاز المطلوب

وراء كل خطاب
منطوق خطاب
مراد مفهوم

نفى مطاعين
المبطلين وأوهام
العوام من
مقاصد النظم

بِشْيءٍ، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾، فعلى ذلك ليست داخلَةً في حيزِ القولِ في قوله: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾⁽¹⁾، فصَحَّ أن تكون استِثْناءً بيانياً، أي لما أمرهم بالأكل، فكأن سائلاً قد سأل عن مآل الأمر؟ فجاء الجوابُ قال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾، دفعاً لتوهم أنها تنطقُ عند السؤال، فإنَّ للناس أوهاماً في هذا الباب، ما بين وهم الباطل كما قد يزعمه المبطلون الطاعنون، وبين وهم أهل الحق بأنه من المحتمل أن يخلق الله فيهم القدرة على الإجابة معجزة لإبراهيم عليه السلام؛ فدفع ذلك كله بهذه الجملة، فتكون من باب شبه كمال الاتصال، أو تكون من كمال الاتصال بياناً للجملة المتقدمة، وذلك أنه لما أمرهم بالأكل، جاء قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ بياناً أنهم لم يأكلوا بنفي ما دون الأكل وهو النطق.

غرض الاستفهام وبلادته:

غرض الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ للتحقير؛ يعني أنه يحقرها بكونها لا تنطق، والتحقير هنا وإن كان متوجّهاً إلى الأصنام ذاتها، إلا أنه يستلزم تحقيرها تحقير عابديها؛ لأنه إذا كان المعبود المؤلّه حقيراً، فأولى بالحقارة منه من يعبدّه ويعتقد فيه استحقاق الألوهية؛ لأنه رضي بعبادة ما لا وزن له ولا رتبة، هو ضرب من الحقارة والسّفه في العابد، وهذا في غاية التحقير لكلّ عابدٍ للأصنام.

نكتة مخاطبة الجمادِ مخاطبة العقلاء:

خاطب إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ الأصنام مخاطبة العقلاء في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ولم يقل: (ما لكن) تنزلاً مع أصحابها الذين يجعلونها من ذوات العلم، وذوات القبول

عبادة ما لا وزن له ولا رتبة دليل على حقارة العابد والمعبود معاً

التعريض بكفار قريش الذين يعاملون الأصنام معاملة العقلاء

(1) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 153/23.

والدفع عنهم، وتزيله الأصنام منزلة من يعقل في الخطاب تسجيل عليها بالعجز، وعلى عابديها بالسفه والبلادة، فمعنى ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطُقُونَ﴾: أي: (أي شيء يمنعكم من النطق إن كنتم آلهة؟) (1) والمقصود بذلك قرّيش التي تسمع هذا الخطاب؛ فهو تعريض بهم، وهذا من مضاعفات مقاصد النظم القرآني.

نوع الفاء ودلالاتها:

التردج في
تجلية الحق من
الخطاب إلى
الفعال

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَرَأَوْا عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ لعطف الجملة على قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطُقُونَ﴾، والفاء تفرعية؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وإفادة التعقيب الفوري والإسراع في إنجاز مدخولها والتلبس به بعد انقطاع جوابهم عنه، ويصح أن تكون فصيحة عاطفة مدخولها على محذوف مقدر: أي: سألهم فلم يجيبوا شيئاً فانهاهال عليهم ضرباً (2).

بلاغة استعمال مفردة (راغ):

بعض الصالح لا
تنفذ إلا بحيلة
وتحف

أثر النظم الكريم استعمال مفردة (راغ) دون رديفاتها - كأقبل - في قوله تعالى: ﴿فَرَأَوْا عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، فلم يقل: (فأقبل عليهم ضرباً)؛ لأنه أراد التنبيه على حال مخصوصة في ذلك الإقبال، وهو أنه إقبال مقترن بالاحتياط والاحتياط والتستر؛ فإنه وإن كان وحده مع الآلهة، فإنه أراد ضربها وهدمها دون أن يلاحظه أحد، فكان إقبالاً صادراً عن تفكير مسبق؛ فجاء التعبير بمفردة (راغ)؛ لأنه ما كان يتأتى له ﷻ أن يجاهر بتحطيمه الأصنام عياناً بياناً، اتقاء لما يقتضيه ذلك من المفاسد والأضرار، فكان إقباله على ذلك حيلة وحذراً.

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الصافات، ص: 201.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/257، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 23/153.

نكتة تكرار مُفردة (راغ) في السياق:

تَكَرَّرَ استعمالُ مُفردةِ (راغ) مرَّتين؛ الأولى في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ﴾ والأخرى في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ في هذا السياق، وذلك أَنَّ هذه المُفردة اشتملت على معنى الخِفةِ والتَّفكيرِ المُسبِّقِ بالفعلِ واستعمالِ الحيلةِ للوصولِ إلى الهدفِ، وجماعُ ذلك الانتقالُ من مكانٍ لآخر، أو من حالٍ لآخرى بحيلةٍ وخِفةٍ، فقد راغ ﴿﴾ مرَّتين، الأولى وسيلةً الثَّانية، فالأولى هي الوصولُ إلى أماكنِ الآلهةِ التي كانتَ محفوظةً، والثَّانية هدمُ الأصنامِ وكسرُها، ولا تتحقَّقُ الثَّانية إلا بالأولى، مع اجتماعِ الاحتياَلِ والخِفةِ في المرَّتين؛ ففيه بيانٌ أَنَّ إبراهيمَ ﴿﴾ كان مُحْتَاطًا أَشدَّ الاحتياطِ لإنفاذِ ما يُريد، وبلوغِ مَقْصِدِهِ، وقد تحقَّقَ له ذلك بِسُلُوكِ الأسبابِ، مع الاستعانةِ بالعزيرِ الوهابِ.

لا تتحقَّقُ
المقاصِدُ إلا
بوسائلِها التي
من جنسِها

بلادةُ التَّضمينِ بتعديةِ الفعلِ بحرفِ الاستعلاءِ:

عُدِّي فعل (راغ) بحرفِ الاستعلاءِ؛ لتضمينِ (راغ) معنى (أَقْبَلَ)؛ أي: أَقْبَلَ عَلَيْهِم بِالضَّرْبِ والتَّحْطِيمِ. ولا يَخْفَى اقتضاءُ المعنى لذلك؛ لأنَّ التَّحْطِيمَ والكسَرَ والضَّرْبَ هو استعلاءٌ من الضَّارِبِ على المَضْرُوبِ، وفيه إشارةٌ إلى عَجَزِ الأصنامِ التَّامِّ بقرينةِ حرفِ الاستعلاءِ الذي يدلُّ على تمكُّنِ إبراهيمَ ﴿﴾ منهم تمكُّناً تامًّا⁽¹⁾، وبالتَّضمينِ يَقَعُ الإيجازُ، إذ جَمَعَ معاني (راغ) وما دلَّ عليه الاستعلاءُ من معنى الإقبالِ والإقدامِ المُشْرَبِ بمعنى الغُضْبِ.

عَجَزُ الأصنامِ
المُطَّاقُ ظاهرٌ
وعَجَزُ عابديها
العقليُّ أَظهر

موقعُ ﴿ضَرْبًا﴾ في البيان:

تَحْتَمِلُ كلمةُ ﴿ضَرْبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ ثلاثةَ أَعَارِبٍ: فهي تَحْتَمِلُ أَنْ تكونَ نائِبًا عن المَفْعُولِ المُطَّلَقِ من الفعلِ (راغ) من غيرِ لفظِهِ، كجَلَسْتُ قُعودًا، وتَحْتَمِلُ

اختلافُ
الأعاربِ قُسْحَةً
في المعنى عَجِيبٌ

(1) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 257/16.

أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا مُطْلَقًا لِفِعْلِ مَحذُوفٍ؛ أَي: (رَاغَ عَلَيْهِمْ يَضْرِبُهُمْ ضَرْبًا)، وَحُذِفَ الْفِعْلُ؛ لِدَلَالَةِ الْمَصْدَرِ عَلَيْهِ، وَتَحْتَمِلُ الْحَالُ مِنْ ضَمِيرِ (رَاغَ)؛ أَي: (رَاغَ عَلَيْهِمْ ضَارِبًا لَهُمْ)⁽¹⁾، وَهَذِهِ الْأَعَارِيبُ وَإِنْ بَدَتْ صِنَاعِيَّةً فِي نَحْوِهَا، إِلَّا أَنَّهَا تَحْمِلُ فِي طَيِّبَاتِهَا دَلَالَاتٍ فَرَعِيَّةً بَيَانِيَّةً، فَلِأَوَّلِ تَوْجِيهٍ لِمَعْنَى (رَاغَ)، وَالثَّانِي تَصْوِيرُ لِحَدَثِ الضَّرْبِ، وَالثَّلَاثُ بَيَانٌ لِهَيْئَةِ الضَّرْبِ.

نُكْتَةٌ مَجِيءُ الْحَالِ مَصْدَرًا:

مَجِيءُ الْحَالِ
مَصْدَرًا لِلْمُبَالَغَةِ
فِي هَيْئَةِ صَاحِبِ
الْحَالِ

عَلَى إِعْرَابِ ﴿ضَرْبًا﴾ حَالًا وَمَجِيءِ الْحَالِ مَصْدَرًا عَلَى التَّأْوِيلِ بِالْوَصْفِ الْمُشْتَقِّ؛ أَي: (ضَارِبًا)؛ لِدَلَالَةِ عَلَى الْحَدَثِ الْمُجَرَّدِ عَنِ الزَّمَنِ الَّذِي يَكُونُ فِي الْفِعْلِ، وَعَنِ الذَّاتِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْوَصْفِ، فَجَبَّرَ بِالْمَصْدَرِ مُبَالَغَةً، فَحِينَ يَقُولُ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ فَكَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ تَحَوَّلَ سَاعَةً قِيَامِهِ بِضَرْبِهِمْ إِلَى الضَّرْبِ نَفْسِهِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ عُضْرِ الذَّاتِ وَلَا عُضْرِ الْمَادَّةِ، فَصَارَتْ نَفْسُهُ ضَرْبًا آخَرَ عَلَى الضَّرْبِ الْحَاصِلِ، فَفِيهِ تَصْوِيرٌ لَشِدَّةِ ضَرْبِهِ، مِبَالَغَةً فِي هَيْئَتِهِ وَهُوَ مُتَلَبِّسٌ بِالْفِعْلِ، وَيَكُنُّهُ مِنْ شِدَّةِ انْدِمَاجِهِ فِي إِحْدَاثِ الضَّرْبِ صَارَ هُوَ الضَّرْبَ نَفْسَهُ⁽²⁾.

نَوْعُ الْبَاءِ وَدَلَالَتُهَا الْبَيَانِيَّةُ:

الْبَاءُ تَحْتَمِلُ
الِاسْتِعَانَةَ
وَالسَّبَبِيَّةَ
بِحَسَبِ تَفْسِيرِ
(الْيَمِينِ)

الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ بَاءُ الْآلَةِ، وَمَعْنَاهَا الْإِسْتِعَانَةُ؛ أَي: (ضَرْبَهُمْ مُسْتَعِينًا بِالْيَمِينِ)، وَهِيَ كَالْبَاءِ فِي قَوْلِهِمْ: (كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ)، وَسُمِّيَتْ بَاءُ الْآلَةِ أَوْ الْإِسْتِعَانَةِ؛ لِدُخُولِهَا عَلَى آلَةِ الْفِعْلِ، وَهُوَ مَعْنَى لَهَا قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الْمُلَابَسَةِ، لِأَنَّ الْمُلَابَسَةَ لَازِمٌ عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: ضَرْبًا مُتَلَبِّسًا بِقُوَّةِ الْيَمِينِ⁽³⁾، فَيَلْزَمُ عَنِ اسْتِعَانَتِهِ بِهَا أَنْ يُلَابِسَهَا، فَالِاسْتِعَانَةُ تَبْدَأُ مِنَ الْقَصْدِ، وَالْمُلَابَسَةُ تَحْصُلُ مَعَ الْفِعْلِ،

(1) الخطيب، التفسير في الإعراب: 23 / 153.

(2) السامرائي، معاني النحو: 2 / 288.

(3) الجمل، حاشية الجمل: 3 / 544.

فلاستعانةُ أسبقُ، فاليمينُ بمعنى اليدِ والقوة، وإذا جعلنا (اليمين) بمعنى القسمِ فالباءُ سببيةٌ.

براعة استعمال مُفردة (اليمين) بمعنيين مُرادين:

أثر النظم الكريم استعمال مُفردة (اليمين) دون ألفاظٍ أخرى في قوله تعالى: ﴿صَرَبًا بِالْيَمِينِ﴾؛ وذلك أن هذا اللفظَ يحتملُ معنيينِ اثنين، وكلاهما عند التأمل مُرادٌ، أما الأول فهو الجارحة التي فيها قوة الضرب، ونكتة التعبير باليمين دون اليد أمران: الأول هو الجمع بين هذا المعنى والمعنى الآخر الذي سيأتي الكلامُ عليه، والأمر الثاني الإشارةُ إلى مُناسبةٍ بديعةٍ في السياق، وهو أن مصالح الدين وحرَمَ العقيدة حريٌّ أن يُصانَ بالأيمان ويدافع عنه بآلاتِ القوة والغلبة والتي كان (اليمين) شعارًا لها وعبارةً عنها.

والمعنى الآخر هو أن تكون مُفردة (اليمين) بمعنى القسم كما بيَّنه قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ (الأنبياء: 57؛ أي: إنه أقسم أن يكيد الأصنام؛ فيسبب ذلك القسم راغ على الأصنام ضربًا فكسرها، فيكون الضرب تفسيرًا للكيد، والمعنيان مُرادان، إذ لما أقسم أن يكيد الأصنام نفذ ذلك وحققه واقعًا بيمينه وقوته، فاليمين التي بمعنى القسم هي القوة العقديَّة والنظرية، واليمين التي بمعنى الجارحة هي القوة التنفيذية.

بلغة الكناية:

في تأويل معنى الضرب في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ بأنه ضربٌ كائنٌ باليمين القسمية أو الجارحة، فهو في الحقيقة إسنادُ الضرب لليمين من حيث الدلالة، إذ الضاربُ قوة اليمين النظرية السببية والفعلية الآلية، ففيه كناية عن الشدة في التحطيم والقوة في الكسر والهدم، لأن الإنسان إذا استجمع قوته العقديَّة والبدنية أثناء العمل فإنه يقوم بعملٍ عظيمٍ شديدٍ، لا يقوى عليه ضعيفُ العقيدة والبدن.

اليمينُ بمعنى
القسمِ ثمَّنلُ
القوة النظرية
وبمعنى
الجارحةِ ثمَّنلُ
القوة التنفيذية

اجتماعُ قوة
العقيدة والبدن
من دواعي إتقان
العمل

بلاغة الفاء الفصيحة:

الْمُؤْمِنُ أَحَقُّ
بِالْإِنْتِصَارِ لِلَّهِ
تَعَالَى مِنْ
الْإِنْتِصَارِ عَبْدَةَ
الْأَوْتَانِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ فصيحةٌ، عاطفةٌ مدخولها على كلامٍ مقدّرٍ يقتضيه السياق؛ أي: (فرجعوا من عيدهم فوجدوا الأصنامَ حطاماً فأقبلوا)، مع ما فيها من تصويرِ المشهدِ، بسرعةِ معرفتهم بما حدثَ وانتشارِ الأمرِ سريعاً بينَ الناسِ، فإنَّ تهديدَ الحقِّ للباطلِ يُرهِّبُ الأعداءَ، فكيفَ بتنفيذِ ما خافوه؟ وفيها إيماءٌ إلى أنَّ المسلمَ أحقُّ بالمبادَرةِ في الانتصارِ لله تعالى من أولئك الذين بادروا في الانتصارِ لآلهتهم.

بلاغة استعمال مُفردة الإقبال:

مَنْ طَعِنَ فِي
اعْتِقَادِهِ فَقَدْ
اسْتَعْدَى

جاء استعمالُ مُفردةِ الإقبالِ في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ﴾، ولم يقل: (أتوه أو جاؤوه)؛ ليدلَّ على إتيانِ قُصْدَتٍ فيه المواجهةُ والمُقابلةُ الصَّريحةُ، فأصلُ الإقبالِ يدلُّ على مواجهةِ شيءٍ بشيءٍ⁽¹⁾؛ فللتَّنبيةِ على معنى المواجهةِ عبَّرَ بالإقبالِ دونَ غيره، ولا يخفى ما في التعبيرِ بالإقبالِ من جاهزيَّتِهِم لعِقابه، وتحضيرِهِم لَزَجَرِهِ، فتركيبُ: ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ﴾ مُشْعِرٌ بانفعالِهِم بالغَضَبِ والسُّخْطِ عليه؛ لأنَّ الانفعالَ بالغَضَبِ والتَّحدِّي من مُحَرِّضَاتِ الإقبالِ والمواجهةِ، ودلَّ استعمالُ هذهِ المُفردةِ على أنَّه واجهَهُم حينَ أقبلوا ولم يهرَّبْ أو يفرَّ منهم، ففيه بيانٌ لشجاعته وقوَّةِ قلبه في طلبِ إظهارِ الحقِّ وعدمِ الخوفِ من الباطلِ.

توجيهُ تعلُّقِ ﴿إِلَيْهِ﴾ بالسَّابِقِ وَاللَّاحِقِ:

لفظُ ﴿إِلَيْهِ﴾ في قوله: ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ إمَّا أن يتعلَّقَ بما قبله، أو بما بعده؛ أي: ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ﴾ أو ﴿إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾⁽²⁾، فإذا تعلَّقَ بما قبله فظاهر، وإذا تعلَّقَ بما بعده فعلى الاختصاصِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).

(2) السَّمين، الدُّرُّ للصون: 508/5، والجمل، حاشية الجمل: 544/3.

براعة الاستعارة في مُفردة ﴿يَرْفُونَ﴾:

مُفردة ﴿يَرْفُونَ﴾ استعارة تصريحيةً تبعيةً، حيثُ شبهَ إسرَاعهم في مَجِيئِهِم إليه، بِزَفِيفِ النِّعَامِ وهو اقترانُ عَدُوِّهَا بِطَيْرَانِهَا⁽¹⁾، فتتطلقُ مُسرعةً من وجهِ خَطَرٍ يَتَهَدَّدُهَا، فتزِفُ بِجَنَاحِهَا، وَنُكْتَةُ الاستعارةِ بِتشبيهِ القومِ بالنِّعَامِ الَّذِي يُقْبِلُ دُونَ وعي أو فَهْمٍ، وَيُشَكِّلُ على نَفْسِهِ خَطَرَ الإقدامِ، ويأتي بالحماقاتِ غيرِ المُتَوَقَّعةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ ﴿يَرْفُونَ﴾:

جاء الفعلُ ﴿يَرْفُونَ﴾ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ؛ لتصويرِ القومِ كأنَّهم يُريدُونَ أَنْ يَطِيرُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وهو كنايةٌ عن طَيْشِهِمْ وَخَفَّةِ عَقْلِهِمْ، وفي المُقَابِلِ فَإِنَّ هُدُوءَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ يُمَثِّلُ حَالَ الْعَقْلِ الرَّاجِحِ وَالْقَلْبِ الْمُطْمَئِنِّ، وهذا مِنْ شَدِيدِ التَّهَكُّمِ بِالْقَوْمِ، والمَدْحِ لِلْخَلِيلِ.

توجيه القراءاتِ الْقَرَأَتِيَّةِ:

اختلفَ الْقُرَّاءُ في قولهِ تعالى: ﴿يَرْفُونَ﴾، فقرأ حمزة: ﴿يَرْفُونَ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الزَّايِ، وهي مِنْ (أَزَفَّ يَرْفُ) ، وهل الهمزةُ لِلتَّعْدِيَةِ أَوْ لِلدُّخُولِ فِي الْفِعْلِ؟ قولان. فعلى كونها لِلتَّعْدِيَةِ يَكُونُ الْمَفْعُولُ مَحذُوفًا، والمعنى: (يُزِفُونَ دَوَابَّهُمُ الَّتِي تَحْمِلُهُمْ؛ لِلإِسْرَاعِ فِي الْمَسْيِ)، وعلى كونها لِلدُّخُولِ فِي الْفِعْلِ، فالعنى: شُرُوعُهُمْ فِي حَالِ الزَّفِيفِ؛ أَي: صَيَّرُوهُمْ إِلَى تِلْكَ الْحَالِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: (يُزِفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِوَاذِعٍ مِنَ الْوَجْدِ وَالْحَاجِ مِنَ الْعِزَّةِ لِأَلْهَتِهِمْ)، فبدلَ ذلك على شِدَّةِ الإِسْرَاعِ، كَأَنَّهُمْ مَحْمُولُونَ عَلَى ذَلِكَ بِسَبَبِ ضَغْطِ الْمَوْقِفِ وَقَهْرِ النَّازِلَةِ الَّتِي حَاقَتْ بِهِمْ. وقرأ الباقون بِتَسْمِيَةِ الْفَاعِلِ: ﴿يَرْفُونَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ الزَّايِ، مِنْ (زَفَّ يَزِفُ)، وهي مِنَ الزَّفِيفِ، وهو الإِسْرَاعُ فِي الْعَدُوِّ، وَأَصْلُهُ فِي النِّعَامِ⁽²⁾.

المُسْتَعَجِلُ
على غيرِ بصيرةٍ
يُسَارِعُ فِي هَلَاكِهِ
لا في فِكَاكِهِ

تصوِيرُ طَيْشِ
القَوْمِ وَزَجَاحَةِ
عَقْلِ الْخَلِيلِ

النَّوَاذِلُ تَضَعُطُ
النَّفُوسَ الْمَرِيضَةَ
حَتَّى تُسَارِعَ إِلَى
غَيْرِ قِبَلَةٍ

(1) الزَّاغِبُ، الْفُرْدَاتُ: (زَفَّ).

(2) الْفَخْرُ الزَّازِي، مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ: 26 / 342، وَالبَقَاعِي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 16 / 257، وَابْنُ الْجَزَرِيِّ، التَّنْشِيرُ: 2 / 357.

مُجَابَهَةُ الْبَاطِلِ
لِلْعَادِي خَيْرٌ مِنْ
التَّوَارِي

براعة الاستئناف البياني في الكشف عن عظيم المواقف:

فُصِّلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ لِأَنَّهُ اسْتَنْتَفَ بَيَانِيٌّ؛ لِأَنَّ إِقْبَالَ الْقَوْمِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بِحَالَةٍ سَاخِطَةٍ وَعَزْمٍ عَلَى الْبَطْشِ بِهِ، يُثِيرُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ تَسَاوُلًا عَنْ حَالِ إِبْرَاهِيمَ مَعَهُمْ وَهُوَ فَاقِدٌ لِلنَّصِيرِ مُعَرِّضٌ لِلنَّكَالِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ جَوَابًا وَبَيَانًا لِمَنْ سَأَلَ عَنْ رَدِّهِ فَعِلُهُ ﷺ، وَذَلِكَ مُنْبِئٌ عَنْ رِبَاطَةِ جَاشٍ إِبْرَاهِيمَ؛ إِذْ لَمْ يَتَلَقَّ الْقَوْمَ بِالْاعْتِذَارِ، وَلَا بِالْاخْتِفَاءِ، وَلَكِنَّهُ لَفَيْهِمْ بِالتَّهَكُّمِ بِهِمْ، إِذْ قَالَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: 63]⁽¹⁾، وَهَذَا الاسْتَنْتَافُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ﷺ هُوَ الَّذِي بَادَرَ بِالْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، بِمَا فِيهِ أَدَلَّةٌ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي مَعَهُ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي شَجَاعَتِهِ وَإِقْدَامِهِ وَاعْتِزَاذِهِ بِاللَّهِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ:

جَاءَ التَّعْبِيرُ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾؛ لِكُونَ عِبَادَتِهِمْ جَارِيَةً مُسْتَمِرَّةً سَاعَةً خِطَابِهِمْ، فَالْإِنْكَارُ عَلَيْهِمْ لِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْهُمْ وَسَيَكُونُ، لَا لِمَا كَانَ فِيهِمَا مَضًى.

غَرَضُ الاسْتِفْهَامِ وَدَلَالَتُهُ:

جَرَى الاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ عَلَى تَقْرِيرِهِمْ بِالْمُغَالَطَةِ، وَالْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، مَعَ تَوْيِخِهِمْ، وَالتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ بِالْجِنَايَةِ، وَالنَّعْيِ عَلَى عُقُولِهِمْ، وَتَسْفِيهِهِمْ، وَأَوَمَّا الاسْتِفْهَامُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى الاسْتِعْجَابِ وَالِاسْتِغْرَابِ وَالِاسْتِهْجَانِ، مِنْ عِبَادَةِ مَا يَنْحِتُونَ، وَهُوَ اسْتِعْجَابٌ لِلوَاقِعِ الْبَائِسِ لَا اسْتِفْهَامٌ عَنْ أَمْرٍ غَيْرٍ وَاضِحٍ.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ ﴿مَا﴾:

جَاءَ التَّعْبِيرُ بِأَدَاةِ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾؛ لِصِدْقِهَا عَلَى ذَوَاتِ مَا لَا يَعْقِلُ، وَهِيَ الْأَصْنَامُ، فَاسْتِعْمَالُهَا هُنَا هُوَ الْأَصْلُ،

تَقْرِيرُ الْوَثْنِيِّينَ
بِالْمُغَالَطَةِ
فِي عِبَادَةِ
مَنْحُوتَاتِهِمْ

اخْتِيَارُ الْأَدَوَاتِ
خَادِمٌ لِتَجْلِيَةِ
مَعَانِي الْحَقَائِقِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23 / 144.

وفيه تصريحٌ منه ﷻ لهم بِبُطْلانِ آلِهِمْ؛ إذ هي لَا تَعْقِلُ وَلَا تَعْلَمُ،
فكيف تُعْبَدُ؟⁽¹⁾.

نوع ﴿مَا﴾ وتقديرها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ موصولةٌ، والعاثُ محذوفٌ؛ أي: (الَّذِي تَنْحِتُونَهُ)، وَجَوَزَ أَنْ تَكُونَ مصدريةً، تُؤوَّلُ مع مدخولها بمصدرٍ؛ أي: (أَتَعْبُدُونَ نَحْتَكُمْ). ويصحَّ أَنْ تَكُونَ نكرةً موصوفةً بقوله: ﴿تَنْحِتُونَ﴾، والتقدير: (أَتَعْبُدُونَ شيئاً تَنْحِتُونَهُ، أو أصناماً تَنْحِتُونَهَا)⁽²⁾.

نكتة التعريف بالصلة:

على القولِ بأنَّ ﴿مَا﴾ موصولةٌ، فإنَّ إِيثارَ استعمالِ الاسمِ الموصولِ معِ صِلَتِهِ دُونَ الاسمِ الظَّاهِرِ في قوله تعالى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾، فلم يقل: (أَتَعْبُدُونَ المنحوتات)؛ لِتَمْيِيزِ تِلْكَ المَعْبُودَاتِ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ، فتعريفها بالصِّلَةِ تعريضٌ بها وتهوينٌ، وتحقيرٌ من شأنها⁽³⁾، ووجهُ ذَلِكَ التَّهْوِينِ لها وامتهانها: اشتِمَالُ مضمونِ الصِّلَةِ على تَسَلُّطِ فِعْلِهِم على مَعْبُودَاتِهِمْ؛ أي: (إِنَّ شَأْنَ المَعْبُودِ أَنْ يَكُونَ فاعِلاً لَا مُنْفَعِلاً، فَمِنْ المُنْكَرِ أَنْ تَعْبُدُوا أصناماً أنْتُمْ نَحْتُمُوهَا والشَّأْنُ أَنَّهَا أَقْلُ مِنْكُمْ)⁽⁴⁾.

بلادة المجاز العقلي في إسناد الفعل إلى عمومهم:

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، مَحْمُولٌ على العُمومِ لِجَمِيعِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، معَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مُشْرِكٍ في قَوْمِهِ نَاحِتًا، فالنَّاحِتُونَ فِئَةٌ خَاصَّةٌ، وَهُمْ بَعْضُ القَوْمِ لَا كُلُّ القَوْمِ؛ فإِسْنَادُ النِّحْتِ إلى جَمِيعِ المُخَاطَبِينَ - كما أَسْنَدَ العِبَادَةَ - مِنْ قَبِيلِ إسْنَادِ الفِعْلِ

(ما) تَحْتَمِلُ
المَوْصُولَ
الاسْمِيَّ
والمَصْدَرِيَّةَ
وَالنَّكَرَةَ
المَوْصُوفَةَ

صلة الموصول
تحشيد أدلة
العقل وبراهين
الفطرة

المتسبب في شيء
صانع له

(1) البقاعي، نَظَّمَ الدُّرَر: 16 / 258.

(2) الألوسي، روح المعاني: 12 / 118.

(3) السامرائي: 1 / 120.

(4) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِير: 23 / 145.

إلى الكلِّ، والبعضُ هو الفاعِلُ؛ لأنَّه لما كان النَّحْتُ الحَاصِلُ مُنْتَفِعًا بِهِ الكلُّ أُسْنِدَ إلى جَمِيعِهِمْ، ولَمَّا كان البعضُ إِنَّمَا يَنْجَحُونَ لِأَجْلِ الجَمِيعِ، وَلَمَّا كان البعضُ الَّذِي لَا يَقُومُ بِالنَّحْتِ هُم مِّنَ الأسبابِ المُعِينَةِ لِفِئَةِ النَّحَّاتِينَ، بِطَرِيقِ التَّمْوِيلِ والإِمْدَادِ بِالمَالِ، فَلِكُلِّ صَنَعَةٍ رُعَاتُهَا بِالمَالِ وبغيرِهِ - أُسْنِدَ إلى الجَمِيعِ، والإِسْنَادُ مِنَ المَجَازِ العَقْلِيِّ. وعليه: فيكونُ إسنَادُ العبادةِ إلى جَمِيعِهِمْ حَقِيقَةً، وإسنَادُ النَّحْتِ إلى جَمِيعِهِمْ مَجَازًا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ القَوْمِ كانوا نَحَّاتِينَ، أو تِجَارَتُهُمْ وَمَعَايِشُهُمْ مِنَ النَّحْتِ، وهذا بَعِيدٌ مِّنَ وَاقِعِ النَّاسِ.

تَوْجِيهٌ تَخْصِيصُ النَّحْتِ بِالذِّكْرِ:

خَصَّ النَّظْمُ الكريمُ ذَكَرَ مَعْبُودَاتِهِمْ بِكُونِهَا مَنَحُوتَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، دُونَ سَائِرِ الإِطْلَاقَاتِ، ذَلِكَ أَنَّهُ بِتَعْيِينِ تِلْكَ الصِّفَةِ لَهَا، أَرَادَ إِظْهَارَ حَيْثِيَّةِ المُغَالَطَةِ فِي عِبَادَتِهَا، فَكَوْنُهَا مَنَحُوتَةً، عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِهَا مَصْنُوعَةً لَهُمْ، وَالمَصْنُوعُ لَا يُعْبَدُ؛ لِكُونِهِ مَقْدُورًا عَلَيْهِ مِنْ صَانِعِهِ، فَالَّذِي صَنَعَهُ أَوْلَى مِنْهُ بِالعِبَادَةِ، إِذْ كَيْفَ يُعْبَدُ المَصْنُوعُ وَلَا يُعْبَدُ الصَّانِعُ، فَإِنْ كَانَتِ العِبَادَةُ تَحَقُّ لِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ فَهُمْ أَحَقُّ أَنْ يَعْبُدُوهُمْ؛ لِأَنَّكُمْ صَنَعْتُمُوهُمْ؛ وَلَمْ يَصْنَعُوكُمْ⁽¹⁾. وَأَيْضًا وَجَّهَ آخِرُ لَتْلِكَ المُغَالَطَةِ: وَهُوَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ المَنَحُوتَاتِ الَّتِي شَكَّلُوهَا بِأَيْدِيهِمْ، وَقَبْلَ إِحْدَاثِ صَنَعَتِهِمْ فِيهَا كَانَتْ حِجَارَةً خَامًّا لَا يَعْبُدُونَهَا، فَكَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ لَا يَعْبُدُونَ الشَّيْءَ ذَاتَهُ، بَلْ يَعْبُدُونَ آثَارَ صِنَاعَتِهِمْ فِيهِ وَهُوَ النَّحْتُ، فَحَصَلَ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرْتَضُونَ عِبَادَةَ المَخْلُوقِ - مَعَ بُطْلَانِ ذَلِكَ - وَهُوَ عَلَى أَصْلِ صَوْرَتِهِ، حَتَّى يُحْدِثُوا فِيهِ خَلْقًا آخَرَ بِالنَّحْتِ وَالتَّشْكِيلِ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذَلِكَ مِنْ فُضَائِحِ العَقْلِ المُرَكَّبَةِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ⁽²⁾.

(1) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 16 / 258.

(2) القُتُوبِيُّ، فَتْحُ البَيَانِ: 11 / 403.

الصَّانِعُ الَّذِي
يُعْبَدُ مَصْنُوعُهُ
خَالَفَ مُقْتَضَى
العَقْلِ الصَّرِيحِ
لِاتِّبَاعِ الْهَوَى

بلادة جُملة الحال:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واو الحال؛ أي: (أَتَيْتُمْ مُنْكَرًا إِذْ عَبَدْتُمْ مَا تَصْنَعُونَ بِأَيْدِيكُمْ، والحال أن الله خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلُونَ وأنتم مُعْرِضُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، أو وأنتم مُشْرِكُونَ معه في العبادة مَخْلُوقَاتٍ دُونَكُمْ). والحال مُسْتَعْمَلَةٌ فِي التَّعْجِيبِ؛ لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ حَذْفًا بَعْدَ وَاوِ الْحَالِ، إِذِ التَّقْدِيرُ: (وَلَا تَعْبُدُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ مَا نَحْتُمُوهُ)⁽¹⁾.

نوع (ما) وتقديراتها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الظاهر أنها موصولة؛ أي: (خَلَقَكُمْ وَالَّذِي تَعْمَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ عَلَى الْعُمُومِ وَيَدْخُلُ فِيهَا الْأَصْنَامُ الَّتِي تَحْتُونَهَا دُخُولًا أَوَّلِيًّا)، ويكون معنى العمل هنا: التَّصْوِيرُ وَالنَّحْتُ وَنَحْوُهُمَا، وَيُرْجَّحُهُ مَا قَبْلَهُ؛ أي: (أَتَعْبُدُونَ الَّذِي تَنْحِتُونَ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ عَمَلَكُمْ فِي النَّحْتِ وَالتَّصْوِيرِ، وَهُوَ إِقْدَارُكُمْ عَلَيْهِ، وَتَعْلِيمُكُمْ إِيَّاهُ بَعْدَ إِيجَادِهِ لَكُمْ)⁽²⁾، وَجَوَزَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا مَصْدَرِيَّةٌ؛ أي: (خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ)، وَهَذَا بَاطِلٌ وَبَعِيدٌ لِمَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْجَبْرِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي بِهَا كَانَتْ الْأَصْنَامُ؛ أي: (كَمَا خَلَقَكُمْ خَلَقَ أَعْمَالَكُمْ)، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُخَيَّرَ فِي أَعْمَالِهِ، أَوْ نَكِرَةً مَوْصُوفَةً؛ أي: (خَلَقَكُمْ وَمَنْحُوتَاتٍ تَعْمَلُونَهَا)⁽³⁾.

توجيه مُفَزَّدة العمل على الحقيقة والمجاز:

على القول بأن معنى العمل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ هو نَحْتُ الْأَصْنَامِ، بِقَرِينَةِ الْخُصُوصِ قَبْلَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾. يكون في تسمية النحت بعموم العمل مجازاً مُرْسَلٌ

مَنْ قَدَرَ عَلَى
خَلْقِ الدَّوَاتِ
قَدَرَ عَلَى خَلْقِ
أَفْعَالِهَا مِنْ بَابِ
أَوَّلَى

(ما) موصولة
لأنَّ مناط الإنكار
عليهم بما في
حيزها

العمل لفظ عامٌّ
يرادُّ به العموم،
والخصوص له
حكم الأولوية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 145/23.

(2) القنوجي، فتح البيان: 404/11.

(3) جلال الدين المحلي، تفسير الجلالين، ص: 593، والقنوجي، فتح البيان: 404/11، وابن عُثَيْمِينَ،

تفسير سورة الصافات، ص: 204.

لِعَلَّاقَةِ الْعُمُومِ، فَأُطْلِقَ الْعَامَّ وَأَرَادَ بِهِ الْخَاصَّ، وَإِذَا جَعَلْنَا الْعَمَلَ عَلَى عُمُومِهِ فَالْكَلَامُ عَلَى ظَاهِرِهِ الْحَقِيقِيِّ وَلَا مَجَازَ فِيهِ، وَهَذَا هُوَ الْأَوَّلَى؛ لِدُخُولِ النَّحْتِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا فِي الْمُرَادِ.

بلاغة الاستئناف البياني:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ استئناف بيانيٍّ جاء بعد مَحذُوفَاتٍ مُقَدَّرَةٌ؛ أَي: (لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ﴾ ^(١٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)، فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَنَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَلَمْ يُعَيِّرُوهُ جَوَابًا وَلَمْ يَأْبَهُوا بِحُجَّتِهِ، فَتَشَاوَرُوا بَيْنَهُمْ، وَعَزَمُوا عَلَى عَقُوبَتِهِ). فَذَلِكَ يُثِيرُ فِي نَفْسِ أَنْ تَسْأَلَ: (فَمَاذَا كَانَ حُكْمُهُمْ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ؟ أَوْ إِلَآمَ انْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ مَعَهُ؟)، فَأَجِيبَ: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾، وَفِي هَذَا الِاسْتَنْتَافِ الْبَيَانِي دَلَالَةٌ عَلَى طَيِّ جَمَلٍ وَأَلْفَافٍ وَأَحْدَاثٍ فَهَمَّتْ مِنَ السِّيَاقِ، فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِيجَازِ وَطَيِّ الْأَحْدَاثِ.

دلالة فعل الأمر:

دَلَّ الْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ عَلَى أَنَّ الْقَائِلِينَ هُمْ أَكَابِرُ السَّدَنَةِ وَرُؤَسَاءُ الدِّينِ وَالْمَعْبَدِ، أَوْ الْقَضَاةُ أَعْوَانُ الْأَكَابِرِ مِنْ قَوْمِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَمْرَ فِي مِثْلِ هَذَا يَصْدُرُّ عَنْهُمْ.

نكتة تقديم الجار والمجرور:

قُدِّمَ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ فَلَمْ يَقُلْ: (ابْنُوا بِنْيَانًا لَهُ)؛ لِلْقَصْرِ؛ أَي: (ابْنُوا بُنْيَانًا لَهُ وَحْدَهُ، لَا لِغَيْرِهِ)، وَأَفَادَ الْاِخْتِصَاصُ طَلِبَ بُنْيَانٍ خَاصٍّ غَيْرِ مَعْهُودٍ.

دلالة استعمال صيغة (بنيان)، دون (بناء):

أَثَرُ النَّظْمِ الْكَرِيمِ اسْتِعْمَالُ مُفْرَدَةِ الْبُنْيَانِ دُونَ الْبِنَاءِ؛ فَلَمْ يَقُلْ: (ابْنُوا لَهُ بِنَاءً)، بَلْ قَالَ: ﴿بُنْيَانًا﴾؛ وَذَلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ بِنَاءٌ مُشِيدٌ كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ، وَلَيْسَ كَأَيِّ بِنَاءٍ، فَفِي التَّعْبِيرِ بِالْبُنْيَانِ دَلَالَةٌ عَلَى شِدَّةِ الْإِحْكَامِ وَالْمَنْعَةِ فِي مَوْضِعِ النَّارِ الَّذِي بَنَوْهُ، فَلَا تُنَافِسُهُ سَائِرُ

التَّغْطِيسُ
يُجَابُهُ أَهْلُ
الْحَقِّ بِالْعِقَابِ،
وَالْحُجَّةِ
بِالْعَذَابِ

الْبُنْيَانُ دَالٌّ عَلَى
الْجَمْعِ وَالْمَنْعِ
وَالِامْتِلَادِ الَّذِي
يَعَكِّسُ طَبِيعَةَ
غَطْرَسَتِهِمْ

الْأَبْنِيَّةِ فِي هُنْدَسِيَّتِهِ وَمِعْمَارِهِ وَإِعْدَادِهِ، وَالْبُنْيَانُ مَصْدَرٌ كُفِّرَانٍ وَكُفْرَانٍ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ؛ أَيِ: (الْمَبْنِيِّ) أَوْ اسْمٌ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ وَاحِدُهُ بُنْيَانَةٌ، وَهَذَا الْوَجْهُ عَلَى مَعْنَى أَنَّ الْبِنَاءَ كَانَ ذَا أَجْزَاءٍ، فَمَجْمُوعُهَا الْبُنْيَانُ، وَأَمَّا (بِنَاءٌ) فَهُوَ مَصْدَرٌ عَلَى وَزْنِ (فِعَالٍ) يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعٍ، فَالْبِنَاءُ يَمْنَعُ وَيَحْجُزُ مَا بَدَاخِلَهُ عَمَّا بِخَارِجِهِ. وَالْبُنْيَانُ أَمْنَعُ وَأَجْمَعُ كَمَا سَبَقَ⁽¹⁾، وَهُوَ مَا يَعْكِسُ غَطْرَسَتَهُمْ وَكِبَرَهُمْ، وَمَا امْتَلَأَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْحَقِّدِ؛ فَأَرَادُوا إِفْرَاغَهُ فِي هَذَا الْبُنْيَانِ.

نوع الفاء ودلالاتها:

الفاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَلْقَوْهُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَبْنَوْا﴾ وَفِعْلًا أَمْرِيًّا: ﴿أَبْنَوْا﴾، وَ(أَلْقَوْا)، مِنْ مَقُولِ الْقَوْلِ فِي: ﴿قَالُوا أَبْنُوا لَهُ⁽²⁾﴾؛ أَيِ: (ابْنُوا بُنْيَانًا لِيَتَلَقَّوهُ فِيهِ)، وَفِيهِ إِمْلَاحٌ إِلَى سُرْعَةِ الْإِلْقَاءِ.

معنى تعريف لفظ ﴿الْجَحِيمِ﴾ وَتَكْتَةُ تَخْصِيصِهِ بِالذِّكْرِ:

تَعْرِيفُ لَفْظِ ﴿الْجَحِيمِ﴾ عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ أَيِ: (جَحِيمٌ هَذَا الْبُنْيَانِ). أَوْ (ال) لِلْعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى أَيْضًا⁽³⁾، فَسَوَاءٌ سَمَّيْنَاهَا عَهْدِيَّةً أَوْ عِوَضًا فَالْمَالُ وَاحِدٌ، وَخَصَّ ذِكْرَ الْجَحِيمِ دُونَ سَائِرِ أَوصَافِ النَّارِ، وَدُونَ النَّارِ نَفْسِهَا؛ لِمُنَاسَبَةِ ﴿بُنْيَانًا﴾، فَالْجَحِيمُ هُوَ النَّارُ الشَّدِيدَةُ الْوَقُودِ، ذَاتُ الطَّبَقَاتِ، فَكُلُّ نَارٍ عَلَى نَارٍ، وَجَمْرٌ فَوْقَ جَمْرٍ فَهُوَ جَحِيمٌ⁽⁴⁾.

دلالة فاء التعقيب في الخبر:

الفاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ لِلْعَطْفِ وَالتَّعْقِيبِ الْإِخْبَارِيِّ عَلَى مَا قَبْلَهَا، فَالتَّعْقِيبُ فِي التَّرْتِيبِ السَّرْدِيِّ فَقَطُّ لِلْكَلامِ، وَأَمَّا فِي الْوَاقِعِ، فَلَا تَعْقِيبَ؛ لِأَنَّ إِرَادَةَ الْكَيْدِ بِهِ مُتَزَامَةٌ وَمُنْدَمِجَةٌ فِي مَعْنَى قَوْلِهِمْ: ﴿أَبْنَوْا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾⁽⁵⁾.

الْجَحِيمُ هُوَ النَّارُ
ذَاتُ الطَّبَقَاتِ
وَالْحُجَرَاتِ
وَالدَّرَكَاتِ
الْمُتَرَاكِبَةِ

مَنْ غَلِبَ
بِالْحُجَّةِ اسْتَعَانَ
بِالْكَيْدِ

(1) الرَّازِبِ، الْمُرَدَّاتِ: (بَنَى)، وَالبِقَاعِي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 258 / 16، وَالسَّامِرَايِّي، مَعَانِي الْأَبْنِيَّةِ، ص: 26.

(2) الْخَطِيبِ، التَّفْصِيلُ فِي الْإِعْرَابِ: 158 / 23.

(3) الْأَلُوسِي، رُوحُ الْمَعَانِي: 120 / 12.

(4) ابْنُ عَاشُور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 146 / 23.

(5) الْقَوْنُوِّي، حَاشِيَةُ الْقَوْنُوِّي: 291 / 16.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ:

قُدِّمَ الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ ﴿بِهِ﴾، عَلَى الْمَعْمُولِ: ﴿كَيْدًا﴾؛ لِلإِخْتِصَاصِ وَالْحَصْرِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مُكَادٌ بِهِ حِينَئِذٍ إِلَّا هُوَ، فَفِيهِ افْتِرَاضُ وَجُودِ غَيْرِهِ، وَحَصْرُ الْأَمْرِ فِيهِ، وَهَذَا مِنَ الْمُبَالَغَةِ.

نُكْتَةُ تَكْبِيرِ لَفْظِ ﴿كَيْدًا﴾:

اِخْتِلَافُ النَّوَازِعِ
يُؤَوَّلُ إِلَى
التَّفَاوُتِ فِي
الْأَخْلَاقِ

نُكِرَ لَفْظُ ﴿كَيْدًا﴾ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّكْثِيرِ؛ أَيُّ: (كَيْدًا عَظِيمًا ذَا كَثْرَةٍ فِي أَنْوَاعِهِ وَحِيلِهِ)، فَيَصِحُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لِلتَّنَوُّعِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ هَذَا الْكَيْدَ مُتَنَوِّعٌ بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِي الْإِرَادَةِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الَّذِينَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا لَهُ فِي الْكَيْدِ بَاعٌ وَخَيْرَةٌ غَيْرَ الْآخَرِ، وَذَلِكَ نَاشِئٌ عَنْ اخْتِلَافِ النَّوَازِعِ بَيْنَ النَّاسِ، وَهُوَ مَا يُنْشِئُ التَّفَاوُتَ وَالْإِخْتِلَافَ فِي الْخُلُقِ الْوَاحِدِ.

نَوْعُ الْفَاءِ وَدَلَالَتُهَا الْبَيَانِيَّةُ:

إِلَهُ أَسْرَعُ فِي
إِنْجَازِ وَعْدِهِ مِنْ
سُرْعَةِ الْكَائِنِينَ

مَعْنَى الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ الْجَزَاءُ؛ أَيُّ: (جَازَيْنَاهُمْ عَلَى وَجْهِ السُّرْعَةِ بِمَا أَرَادُوهُ مِنَ الْكَيْدِ)، فَعُطِفَ مُجَازَاتُهُمْ فِي جُمْلَةٍ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ عَلَى جُمْلَةٍ: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾، فَجَاءَ بِالْفَاءِ لِيَدُلَّ عَلَى سُرْعَةِ إِنْجَازِ اللَّهِ وَعْدَهُ لِأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِالنَّصْرِ وَالدِّفَاعِ، وَعَدَمِ إِمْهَالِهِ لِمَنْ أَرَادُوا بِهِمْ سُوءًا وَكَيْدًا، وَعَدَمِ تَسْلِيمِهِمْ لِسُلْطَانِ الْكُفْرِ، وَعَدَمِ خِذْلَانِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿*إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: 38]، وَكَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ"⁽¹⁾، فَهَذِهِ الْفَاءُ فِي: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ هِيَ فَاءُ السُّرْعَةِ فِي الْمُعَاقَبَةِ وَالتَّفْرِيعِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْأَسْفَلِينَ، دُونَ الْأَخْسَرِينَ:

رَدُّ الْكَيْدِ فِي
النَّخْرِ هُوَ عِقَابُ
الْكَافِرِ بِجِنْسِ مَا
أَرَادَهُ بِأَوْلِيَائِهِ اللَّهِ

جَاءَ اسْتِعْمَالُ مُفْرَدَةِ ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ لِمُنَاسَبَةِ الْبُنْيَانِ (وَالْجَحِيمِ)، فَلَمَّا كَانَ الْبُنْيَانُ الَّذِي بَنَوْهُ صَاعِدًا عَمِيقًا، وَكَانَ ذَلِكَ مُنَاسِبًا

(1) البخاري، صحيح البخاري: (6502).

لِلْجَحِيمِ الَّذِي هُوَ دَرَكَاتٌ وَطَبَقَاتٌ، نَاسَبٌ أَنْ يُعْبَّرَ عَنْهُمْ بِجَزَاءٍ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ وَكَيْدِهِمْ، وَهُوَ جَعَلَهُمْ فِي مَقَامٍ سَافِلٍ الدَّرَكَاتِ، وَوَضَعَ الطَّبَقَاتِ، جَزَاءً وَفَاقًا، فَكَأَنَّ مَا أَرَادَهُ لِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مِنَ الْمَوْضِعِ وَالْمَقَامِ قَدْ حَاقَ بِهِمْ وَثَبَّتْ عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، فَوُصِفَهُمْ بِوَصْفِ ﴿الْأَخْسَرِينَ ٧٠﴾ [الأنبياء: 70]؛ لِانْعِقَادِ الْمُنَاطَرَةِ هُنَاكَ فِي السِّيَاقِ، وَالْمُنَاطَرَاتُ خَاسِرٌ وَرَابِحٌ.

بِلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي الْوَصْفِ:

فِي وَصْفِ الْكَائِدِينَ بَنَعَتْ ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ إِيْمَاءً إِلَى عُلُوِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَخَلَاصِهِ مِنْهُمْ، وَإِظْهَارِهِ عَلَيْهِمْ⁽¹⁾؛ أَيُّ: فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ، وَجَعَلْنَاهُ الْأَعْلَى عَلَيْهِمْ.

بِلَاغَةُ الْقَصْرِ وَدَلَالَتُهُ:

تُعْرِيفُ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ فِي مَفْعُولِي الْجَعْلِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ يُفِيدُ الْقَصْرَ، وَهُوَ قَصْرٌ لِلْمُبَالَغَةِ كَأَنَّ سُفْلَهُمْ لَا يُدَانِيهِ سُفْلٌ، وَكَأَنَّهُمْ انْفَرَدُوا بِوَصْفِ ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ فَلَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَيْهِمْ⁽²⁾.

دَلَالَةُ صِيغَةِ (أَفْعَل) التَّفْضِيلِ:

جَاءَتْ صِيغَةُ الْمُفَاضَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾، وَالْأَسْفَلُ مُبَالَغَةٌ (سَافِلٌ)، فَهُوَ اسْمُ تَفْضِيلٍ مَسْلُوبُ الْمُفَاضَلَةِ؛ فَهُوَ مُجَرَّدُ الدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّةِ الْوَصْفِ وَتَأْكِيدِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الزُّمَرُ: 27]، فَهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوا إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي أَسْفَلِ النَّارِ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا أَرَادُوا جَزَاءً وَفَاقًا، وَقَدْ يَكُونُ التَّفْضِيلُ عَلَى بَابِهِ، فَتَثَبَّتْ الْمُفَاضَلَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَائِرِ السَّافِلِينَ، فَهُمْ أَسْفَلُ مِنْ كُلِّ سَافِلٍ، وَلَا مُفَاضَلَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلِيلِ - حَاشَاؤُهُ ﷺ أَنْ يَشْتَرِكَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الْوَصْفِ تَنْزَهُ وَتَبَرَّأ⁽³⁾!

مُضَاعَفَةُ الْجَزَاءِ
لِلْمُعْتَدِي
بِحَسَبِ عِرَاقَتِهِ
فِي الْعُدْوَانِ

تَعْكِيْسُ إِرَادَةِ
الْمُبْطِلِينَ تَنْكِيْسُ
لِقُوَّةِ الْمُعَانِدِينَ

(1) الْقَوْنُوِّي، حَاشِيَةُ الْقَوْنُوِّي: 291 / 16.

(2) ابْنُ عَاشُور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 107 / 17.

(3) الْهَمْذَانِي، الْفَرِيدُ فِي الْإِعْرَابِ: 137 / 4، وَالْخَطِيبُ، التَّفْصِيلُ فِي الْإِعْرَابِ: 159 / 23.

توجيه المجاز المرسل:

مَنْ غَلِبَ سَفَلٌ
وَمَنْ هَانَ تَذَلُّ

لفظ ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ هو جمعٌ لِلْفَظِ (الأسفل)، وهو الذليلُ المغلوبُ، فعَبَّرَ عن إِذْلَالِهِمْ وَمَغْلُوبِيَّتِهِمْ بِلَفْظِ ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾؛ لِكَوْنِ ذَلِكَ الوصفِ لازِمًا عن الذَّلَّةِ والغَلَبَةِ، فَمَنْ كَانَ مَغْلُوبًا كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي المَحَلِّ الْأَسْفَلِ، فَأُطْلِقَ اللَّازِمَ وَأَرَادَ المَلْزُومَ، على طريقةِ المَجَازِ المُرْسَلِ⁽¹⁾.

بلاغة الاستعارة التمثيلية في لفظ ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾:

تصويرُ المَشْهَدِ
الغَيْبِيِّ بِإِيجَازٍ
بَدِيعٍ

في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ سَبَّهَ حَالَهُمْ فِي انْغِلَابِهِمْ وَاِنْقِلَابِهِمْ مَذْلُولِينَ، بِحَالِ مَنْ قَهَرَهُ غَيْرُهُ، فَاعْتَلَاهُ، وَجَعَلَهُ أَسْفَلَ مِنْهُ؛ ففِي التَّرْكِيبِ استعارةٌ تَمَثِيلِيَّةٌ، وَفِي الكَلِمَةِ استعارةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ⁽²⁾، وَنُكِّنْتُهَا تَصْوِيرُ المَشْهَدِ وَالمُنَادَاةُ عَلَى عُلُوِّ الخَلِيلِ ﷺ بِإِنْجَائِهِ مِنَ النَّارِ، وَمَالَ الحَدِيثِ بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ.

(1) القونوي، حاشية القونوي: 291 / 16.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 146 / 23.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الضافات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447 هـ - 2026 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الضافات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الضافات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»